- **(محاضرة 8) إنتاج اللغة وتفكيكها:**

- **الإبداعية اللغوية عند تشومسكي (عرض وتقويم):**

إن القول بالاستعداد الفطري اللغوي أصبح مكونا من مكونات نظرية اللغة الإنسانية، حتى إننا نجد اتجاها كبيرا يضم عددا من اللغويين والبيولوجيين، وعلى رأسهم **تشومكي وليبنرج**، يطلق عليهم أصحاب النزعة الفطرية nativism وهم يذهبون إلى القول بأنّ العقل الإنساني لا يولد صفحة بيضاء كما كان يزعم من قبل، بل إنه مزوّد بقدرات فطرية داخلية محكومة بيولوجيا. وهذه القدرات تمثل نسقا للتعرف، والتصنيف، وقياس الأنماط.[1]

يستطيع الإنسان غير السوي فضلا عن الذكي القادر إنتاج الجمل والتعبير عما في نفسه في حين لا يستطيع أذكى الحيوانات وأكثرها تدربا وتقبلا للتعليم أن يأتي بشيء من ذلك؛ إذ يتدرج الطفل في الكلام ويتعلم اللغة من بيئته، حتى يصل إلى سن السابعة مثلا يكون قادرا على التعبير عما في نفسه بعدد كبير من الجمل التي لم يكن قد سمعها من قبل، وقادرا -إلى حد ما- على التمييز بين الجمل السليمة وغيرها، فيأتي إلى المدرسة في هذه السن ليتعلم كيف يقرأ ويكتب، لا كيف يولد جملا.[2]

هناك فطرية ذهنية تقوم على عدد من الكليات النحوية التي تقوم بضبط الجمل التي ينتجها المتكلم وتنظيمها بقوانين لغوية عامة تخضع لها الجمل، وهي مشتركة بين البشر، ويختار المتكلم ما يناسب لغته ويقي حاجته، وهذه الفطرية التي يولد عليها الإنسان تنمو بالتدريج حتى تنضج من اكتساب التعابير اللغوية من المجتمع، ليتكون لديه قدرة على توليد الجمل وبنائها مضبوطة بقواعد تسمى القواعد التوليدية؛ فالقواعد والقوانين النحوية المسئولة عن بناء الجمل وتراكيبها فطرية ذهنية كليّة عالمية وهي التي تقوم بضبط الجمل بعد توليدها، وينتج عن هذا جمل صحيحة لها معنى وجمل غير صحيحة لا معنى لها، وإن كانت الألفاظ المكونة لها واحدة.[3]

ومن أهم الثنائيات التوليدية التشومسكاوية، الكفاءة والأداء، ويقصد بالكفاية قدرة المتكلم والسامع على إنتاج عدد هائل من الجمل من مكونات الكلام الأولية (الأصوات، والأبنية، والمفردات) والحكم بصحتها أو فسادها من وجهة نظر نحوية تركيبية، مع ربطها بمعنى لغوي محدد، من خلال عمليات ذهنية داخلية، يتم التنسيق بينها بما يسمى "قواعد إنتاج اللغة".[4]

---

[1] انفتاح النسق اللساني –دراسة في التداخل الإختصاصي-:د، محي الدين محسّب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص:77.

[2] انظر: في نحو اللغة وتراكيبها: د. خليل عمايرة، عالم المعرفة، المملكة العربية السعودية، ط1، 1984، ص:55.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص:56، 57.

[4] انظر: المرجع نفسه، ص:57، 58.

أما الأداء أو الإنجاز فهو التجسيد المادي لنظام اللغة في إحداث الكلام، فهو خروج الكفاءة من حيز القوة إلى حيز الفعل. وهو عبارة عن الجمل التي ينجزها المتكلم في سياقات التواصل المتنوعة، فالأداء بمثابة الانعكاس المباشر للكفاءة اللغوية.

إذن؛ فالإبداعية اللغوية عند **تشومسكي** هي قدرة المتكلم المستمع المثالي على توليد عدد لا محصور من الجمل انطلاقا من عدد محدد من قواعد اللغة في الذهن. وكما يعتقد **تشومسكي** أن أغلب ما يتلفظ به الإنسان كلام متجدد، يحمل أفكارا متجددة، ولا يمكن اعتباره ترديدا لما سبق أن سمعه.

إنّ مسألة الإبداعية فى اللغة نقطة افتراق بين المدرسة العقلانية المعرفية والسلوكية الحسية، وإيذانا ببدء الصراع بين علم النفس السلوكي وعلم النفس المعرفي فيما يتعلق باللغة. وقد بدا هذا الصراع واضحا في نقد **تشومسكي** لكتاب **سكنر**: السلوك اللغوي، وهجومه العنيف على النظرة السلوكية لاكتساب اللغة، تلك النظرة التي وصفها بأنها عاجزة عن تفسير كثير من الظواهر اللغوية، والمشكلات التي تبرز أثناء تعلم اللغة، وتقديم حلول لها.

إنّ الإبداعية في اللغة ظاهرة عادية يمتاز بها الإنسان بصورة طبيعية، ولا يجب حصرها فقط في الأعمال الخلاقة في مجال الإبداع اللغوي أو الأدبي. ففي كل إنسان يتكلم لغة ما قادر على أن ينتج جملا متجددة لم يسبق له سماعها من قبل واستعماله لغته في مختلف المجالات التواصلية اليومية هو في الحقيقة استعمال إبداعي في ظل مفاهيم الألسنية التوليدية والتحولية.[1]

أما د، **كمال بشر** فيرى أن حقيقة اللغة عقلية وظيفتها التعبير عن الأفكار، وأنها ظاهرة اجتماعية وظيفتها التوصيل والتواصل، وأنها تمر بدورة من مراحل ثلاث هي:

- الطاقة أو القُدرة أو الخليقة.
- ثم تفعيل هذه الطاقة وقدرتها على الإنتاج وهذه هي السليقة.
- ثم الإنتاج نفسه، المتمثل في المنطوق الحيّ.

وهذا المنطوق أسبق، وأوفى نصيبا في تشكيل اللغة وبنائها، فالإنسان يسمع، فتنطبع في ذهنه أثار ما سمع، ويستطيع بعد التوليد من هذا المخزون، فيخروج وفقل لهذا المخزون. إن كان المخزون فصيحا، كان المولد كذلك، وإن كان عاميا جاء المنطوق على مثاله. ومن هنا كان لابد لنا إن أردنا الإصلاح أن نركز على المنطوق ومعناه أن اللغة في جملتها من صنع الإنسان.[2]

---

[1] الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية:د، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1986، ص:30، 31.

[2] انظر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم: د. كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط1، 1999، ص:83، وما بعدها.

أما الحل النهائيّ عند **كمال بشر** هو أن اللغة تكتسب عن طريق الممارسة بمعونة الطاقة التي يتم تفعيلها دائما وأبدا، وفقا لخواص هذا المكتسب وطبيعته، وهكذا دواليك طول فترة الاكتساب التي تطول أو تقصر، فالطفل يسمع ويلاحظ ويخزّن ثم يحاول بنفسه، ولكنه في كل الحالات في حاجة إلى وسط لغوي يأخذ منه ويسير على دربه، ومن ثم كانت القدوة أهم عامل من عوامل صنع اللغة واكتسابها، فكيفما يكن المسموع يكن الإنتاج.[1]

أما ما ذهب إليه **تشومسكي** في كيفية تحصيل اللغة ففيه نظر، بحيث سعى إلى تأسيس قواعد عالمية زعما منه بتقديم أسس تصلح لتحليل الظواهر اللغوية للغات مهما كان عددها لأن تناول لغة بذاتها يعد أسلوبا قاصرا، لا يرشح عمله بصفة العلمية، في حين أن أي نظرية يكفي لتحقيق علميتها قدرتها على توضيح الواقع اللغوي الخاضع للدراسة القابل للتطبيق وذلك لنعرف كيف تعمل اللغة.

أما قوله بالاعتماد على المقدرة وحدها أو الجانب العقلي فقط يتسم بالذاتية، يبعده من الموضوعية. والمقصود بالمقدرة اللغوية عند الإنسان في نظره تعني قدرته على توليد ما لا حصر له من الجمل الصحيحة، والسؤال الحاد لهذه المقولة اللسانية هو: في أيّ فترة تعنى بهذه القدرة ؟[2]

فإذا كان **تشومسكي** يعني فترة الدراسة، فما معيار صحة هذه الجمل المولدة ؟ من المعلوم أن اللغة لا تثبت على حال واحدة، وهذا يعني اختلاف معايير الصحة من فترة لأخرى، ثم إنه كيف يستطيع الإنسان أن يولد ومن أي شيء يولّد؟ الأمر يقتضي أن يكون هناك مخزون يولد منه كالمخزون في الكمبيوتر؛ حيث يتم التعامل مع المادة الداخلية المخزونة ويولد منها بالبرمجة. هذه المادة المولدة أو المبرمجة إنما هي ملك الأفراد والمجتمع. إذن؛ لا بد من أخذ هذا المجتمع وأفراده في الحسبان، وهو ما يهمله **تشومسكي**.[3]

أما فكرة الثنائية المتمثلة في المقدرة والأداء عند **تشومسكي** فكرة مقبولة من حيث المبدأ، لكن لا يمكن الاعتماد على أحد الجانبين دون الآخر، إنهما متلازمان متكاملان، وخاصة في اللغة، فاعتماد **تشومسكي** على المقدرة وحدها في كل مراحل الدراسة عبثية. ثم إنه في منهجه هذا يفترض منذ البداية وجود متكلم وسامع مثالي. وهذا الإنسان المثالي لا وجود له، وإن وجد فإن مقدرته وأداءة يختلفان من وقت لآخر، وفقا لتغير الظروف.[4]

---

[1] انظر: اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم، ص:10.

[2] انظر: اللغوي بين القديم والحديث:د، كمال بشر، دار غريب للنشر، القاهرة، ط1، 2005، ص:161.

[3] انظر: المرجع نفسه، ص:161، ص:162.

[4] انظر: المرجع نفسه، ص:162.

إنّ نظرية **تشومسكي** تفترض أن قواعد اللغة نظام عقلي مجرد، يعكس المقدرة الإنسانية، وهو نظام بعيد عن كل المتغيرات الإجتماعية، لأن هذه المتغيرات لا يجمعها نظام واحد، ومن ثم فهي في رأيه لا تصلح أن تكون جزءا من نظام اللغة، حيث لا تستطيع القواعد اللغوية أن تقدم تفسيرا لها. فهذه الظواهر المتغيرات يدرسها علماء الإجتماع والأنثروبولوجيا، في نظر **تشومسكي**. فهكذا حرم **تشومسكي** نظريته من النظرة الإجتماعية إلى اللغة. أما فكرة عالمية القواعد، وفكرة المثالية التي تفترض وجود متكلم سامع مثالي يجيد لغته ولا ينحرف عنها، تحتاج إلى نظر، إذن؛ فما الحل مع اللهجات التي تنحرف قليلا أو كثيرا عن النماذج المثالية التي يفترضها **تشومسكي**.[1]

وأخيرا فإن سعى **تشومسكي** لتقعيد اللغة بمنهج رياضي بحت فيه كثير من الغلو والشطط، لسبب بسيط وهو أن اللغة خاصيّة إنسانية تخضع للتطور والتغير، وهو في هذا يتجاهل عنصر الاتصال والتوصيل في اللغة. وكما ترى النظرية السلوكية أنّ اللغة هي شيء يفعله الطفل أكثر منها شيء يملكه الطفل، فاللغة مكتسبة.

[1] انظر: اللغوي بين القديم والحديث، ص:163، 164.